الفصل الخامس
عالم الأصفار

ليس المقصود هنا، أصفار الأرقام. سواء كانت أصفارًا على اليمين، أو على اليسار، وإنما نعنى أصفار الأحياء، وأصفار الأمم.

ونعنى بالذات أصفار سعد زغلول، فقد دعاه داع للاهتمام بالدول العربية، وإيجاد التعاون بينها وبين مصر فى ثورتها، فقال قولة أعجبت عشاق بلاغته، فرددوها وذهبت فى دنيا السياسة، وفى تاريخ الحركة العربية، مثلا. فقد قال: «إن تعاون الأصفار، لا ينتج إلا صفرًا، أو إن ضم الصفر إلى صفر، لا يخرج إلا صفرا.

فالشعوب العربية ما كان منها تحت سلطان الأتراك، مثل العراق وسوريا وفلسطين، وما كان منها تحت سلطان الإنجليز، كمصر والسودان، وما كان تحت سلطان فرنسا مثل تونس والجزائر ومراكش، كانت فى رأى هذا المثل المشهور، أصفارًا، وأن تلاقيها وتعاونها، لا نفع منه ولا جدوى فعلى كل منها، أن يشغل بأمر نفسه، وأن يدير شئونه، ما وسعه التدبير، وأن يدفع عنه عدوان الاحتلال الأوروبى، بقدر طاقته. ولم يسأل يومها أحد، إذا كانت هذه الشعوب أصفارًا، وأنها ستبقى أصفارًا، فما هى جدوى عملها وما ثمرة جهادها، وما نفع قيام الزعامة فيها، إذ أن أولئك، لن يزيدوا عن أن يكونوا عمل صفر وجهاد صفر وزعامة صفر، فلا يكونون إلا صفرا. أما إذا كانت هذه الأصفار، ستتحول إلى آحاد - ولو ببطء - والآحاد إلى عشرات فمئات فألوف، فما المانع أن يجرى هذا التطور إلى الكثرة والقوة ، فى جو من الألفة والتعاون.

ولكن هذه العقلية، هى ثمرة جهل ساد البلاد العربية، فجعل الشعب العربى فى أى جزء ، لا يعرف أقل القليل عن الشعب المجاور، ولا أدل

على ذلك الجهل مما رواه الشيخ رشيد رضا من أنه عند مجيئه إلى مصر، قصد الشيخ محمد عبده وكان فى زيارته أحد علماء الأزهر الذى اختير بعد ذلك بسنين، شيخا للجامع الأزهر، فقدمه إليه الشيخ محمد عبده وقال - على سبيل التعريف - أنه من شباب علماء المسلمين فى لبنان، فما كان من هذا العالم إلا أن سال. وأين يكون لبنان هذا؟ لم يجد هذا العالم حرجا فى هذا السؤال، فإذا عرفت أن صاحب السؤال كان معدودًا من نبهاء علماء الأزهر، كان فى وسعك أن تعرف كيف يكون حال الخاملين من هؤلاء. والسبب الأول هذه الحالة المحزنة، التمزق الفكرى والروحى والثقافى، فى العالم العربى، فمنذ قيام حكم محمد على، ولمصر أسلوب فى الحكم، والحياة، يختلف عن أسلوب البلاد العربية الواقعة الآن شرقى القناة، أما البلاد العربية الواقعة غرب مصر، فقد كانت معزولة تماما بحكم الستار الحديدى الذى فرضه الاستعمار اللاتينى: الإيطالى الفرنسى بين مصر، وبلاد المغرب ولمحاولة هذا الاستعمار المدمر، إخراج هذه البلاد العربية من ثوبها العربى، لغة وثقافة وربما دينا أيضًا.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى كانت البلاد العربية فى شرقى القناة تحت سلطان تركيا، وكانت تعانى من ظلم الأتراك وعسفهم وجهلهم، وتفعل كل ما فى وسعها لإزاحة الكابوس التركى عن صدرها، وكانت مصر، ترسف فى أغلال الاستعمار البريطانى. ودخلت تركيا فى الحرب ضد بريطانيا، فاصبح أمل المصريين أن تنهزم بريطانيا وتنتصر تركيا وأمل الشوام والعراقيين والفلسطينيين أن تنهزم تركيا، وتنتصر بريطانيا. قام إخواننا عرب المشرق ضد تركيا، فايقن المصريون أن هؤلاء خانوا دولة الخلافة الإسلامية، وبذلك يكونون قد خانوا الإسلام نفسه، ولما كانت بريطانيا هى التى حرضتهم على هذه الثورة، وأعانتهم عليها فقد وضع كل زعماء العرب فى قائمة الخونة والخيانة، التى أعدها الرأى العام المصرى.

ومن هنا، أصبحت الدعوة إلى الفكرة العربية أو الوحدة العربية، دعوة مكروهة، يصم المصريون آذانهم عنها، ويحسبونها عملاً حرامًا، ويحسبون القائمين عليها، والمتحمسين لها، عملاء بريطانيا. وأعان على هذا النظر، وأكده أن كثيرًا من السوريين واللبنانيين فى مصر كانوا على صلة وثيقة ومعلنة، بالاحتلال كانت صحفهم تعمل للاحتلال البريطانى وتدعو له جهرة حينًا، وفى التواء حينًا آخر. ومن عادى منهم الاحتلال البريطانى، كان فى خدمة الاستعمار الفرنسى، ومن امتنع عن الخوض فى السياسة، كان يضرب عن تأييد الكفاح الوطنى فلا يذكر عنه شيئًا.

فى هذا الجو، بدأ (بنك مصر) يعظم شأنه، ويتجاوز بأثره مصر إلى البلاد العربية فى شرقى القناة: إلى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق، ثم إلى الحجاز ونجد. وتلقى طلعت حرب الدعوة لزيارة تلك البلاد، فأخذ يتحسس طريقه، فى هذا الميدان الجديد. وخطب طلعت حرب فى سنة ١٩٢٧، فى دمشق ترينا بعده عن الفكرة العربية فهو يتحدث إلى السوريين، وهم من غلاة الدعاة إلى الوحدة العربية فى تلك الفترة، فلا يذكر لهم قط لا عبارة (الوحدة العربية) ولا (الفكرة العربية) وإنما تحدث فى أول الأمر عن الإسلام، وتحدث آخر الأمر عن (الشرق) وبلاد (الشرق) ولما تناول موضوع الثقافة المشتركة، اقترب كثيرًا من موطن كان يستدعى أن يقول فيه عبارة (البلاد العربية) أو (الأمة العربية) أو(العرب)، ولكنه لم يقل شيئًا من ذلك كله، لا عن عمد، وإدراك، بل عن عدم معرفة تامة بهذا اللون من الاتجاه السياسى فى تلك البلاد وقد استعاض عن هذه الألفاظ بقوله (إن البلاد المتكلمة باللغة العربية)، فالتكلم باللغة العربية كان الحد الأقصى، فى التحدث عن هذه الكتلة من الدول أو الشعوب. ولكن طلعت حرب، لم يلبث أن زاد معرفة بهذا الجانب من نشاط أمته، وزاد إيمانا بالعرب والعروبة، ففعل فى هذا السبيل، ما لم يفعله مصرى فى أيامه من المشتغلين بالمسائل العامة.

فقد تبين بحاسة الاقتصادى والسياسى معًا، أن البلاد العربية وحدة اقتصادية بقدر ما هى وحدة ثقافية، وأن بنك مصر يستطيع أن يفعل فى هذا المجال الجديد البكر الكثير وكان لتتابع زيارات طلعت حرب للسودان فى سنة ١٩٣٨، بعد سوريا سنة ١٩٢٥، ثم إلى الحجاز سنة ١٩٣٠، وإلى العراق فى نفس السنة - أثره العظيم فى نفسه، وانتهت فترة التحضير، واختار الفكرة، لتبدأ فترة التنفيذ، فنشأ بنك مصر - سوريا - لبنان، ثم كانت أعمال بنك مصر الكثيرة فى الحجاز، ابتداء بشراء الباخرتين كوثر وزمزم، وإعدادهما لنقل الحجاج، وإنشاء فندق مصر فى السويس، والمساهمة فى كثير من المشروعات العمرانية فى الحجاز نفسه مثل تمهيد طريق السعى بين الصفا والمروة، وتثبيت العملة السعودية، خدمة للحكومة السعودية، وللحجاج الذين يعانون من تقلبات هذه العملة.

وجاءت شركة مصر للطيران لتقدم لفكرة العروبة، أعظم وسائل التقريب والتوفيق فقد ربطت خطوط هذه الشركة الجوية بين القاهرة والخرطوم واللّدّ ودمشق وبيروت وبغداد وقد قاومت الحكومات الاستعمارية: بريطانيا وفرنسا، وصول الطائرات المصرية إلى المطارات العربية، حتى تضمن حسن مراقبتها للزعماء العرب فى تنقلاتهم على طائرات فرنسية وإنجليزية، ولكن طلعت حرب كان ينتهز كل فرصة تتاح له فى مفاوضاته المعقودة مع السلطات البريطانية والفرنسية، بسبب نشاط بنك مصر، ومشترياته، ليظفر بموافقة هذه السلطات على خطوطه الجديدة.

وقد أتاح له نشاطه الاقتصادى فى البلاد العربية فرص التعرف على الملوك والزعماء العرب، وكان يعرف كيف يكسب ثقتهم، فقد كان مثلاً من تقاليده أنه كلما زار السعودية اشترى كمية كبيرة من ماء الورد البلغارى ليقدمها هدية للملك عبد العزيز آل سعود الذى كان يتطيب به. وقد تطورت صلاته بهؤلاء الملوك والزعماء من الأمور الاقتصادية، إلى الشئون السياسية، وقد يكون مثلاً طيبًا على هذا التطور، أنه عندما أرسل الملك

عبد العزيز ولديه (فيصل وخالد) إلى القاهرة سنة ١٩٣٩ قبيل الحرب العالمية الثانية، لإجراء مفاوضات سرية، سبقت اجتماع مؤتمر لندن لحل مشكلة فلسطين، كانت توجيهات الملك عبد العزيز لابنيه أن يستعينا بطلعت حرب في كل ما يلزمهما في شأن هذه المفاوضات، وقد طلب فعلا الشيخ حافظ وهبه الذي عين فيما بعد، سفيرًا للسعودية في لندن، من طلعت باشا أن يندب لهم شخصًا يعتمد عليه ويحسن الإنجليزية، للرد على مذكرات الحكومة البريطانية، فاختار لهم طلعت باشا مدير مكتبه الأستاذ منير زكي الذي كان قد تعلم في بريطانيا. وكان السعوديون الكبار: فيصل وخالد وحافظ وهبه، يتناولون العشاء عند طلعت حرب في منزله بالعباسية بين الحين والحين في فترة المفاوضات ويستعرضون ما تم فيها، ويتفقون على ما يتخذونه أثناءها من مواقف، وما يبدونه للحكومة البريطانية من آراء وطلبات، دون أن يعرف أحد أن لطلعت حرب صلة بهذه المفاوضات.

ولما تعرف طلعت حرب على العالم العربي، شمل بعطفه الزعماء الذين يطاردهم الاستعمار أو الحكومات العربية الضالعة معه، فكان يعين أولادهم، ويمدهم بالمعونة وقد عين ابن بطل ميسلون (نبيه العظمة) ملك العظمة، احتفالاً بذكرى أبيه وتقديرًا لتضحيته العظيمة.

وانتهى الأمر بطلعت حرب إلى استعمال ألفاظ العروبة، والعرب، والأمة العربية، وهي ألفاظ لم تكن تجرى على قلمه ولا لسانه، والمثل على ذلك ما قاله في مقال عن التعاون بين الأمم العربية نشر له في مجلة الهلال:

«كل ما يحيط بنا من الحوادث في هذا الزمان يدعو أهل الأمة العربية إلى التفكير الشديد في تنظيم مرافقها الحيوية واستغلال ما فيها من قوى الخير، والاستعانة على ذلك بأنفسهم وجيرانهم الأقربين معا تيسيرًا لسباب الرخاء والأرزاق، واحتفاظًا لأنفسهم وفائدتهم بما في بلادهم، أرضًا وسماء، من ثروات وكنوز».

«والأمم العربية أسرة واحدة قد ألف بينها الدين واللغات والعادات فهى فى الواقع وحدة واحدة».

ثم قال : بالتعاون تزول الجبال، وتدك العقبات والصعاب، وبفضله كان للدولة العربية قديما ملك واسع وسلطان عريض، حتى ليحكى التاريخ فيما يحكى، بهذا الصدد من الوقائع الكثيرة المقررة، أن أحد الخلفاء نظر فرأى غمامة على رقعة من أديم السماء، فأشار إليها وقال: اهبطى حيث تشائين فسيأتينى خراجك».

ولو أن الله مد فى عمر - طلعت حرب - أو فى عمله بالبنك، لاستغرقته فكرة الوحدة العربية، ولو جد فى هذا الميدان الفسيح المترامى، المتعدد الوجوه والمتنوع، متعة عظيمة. ولقد أعان فعلا إلى جانب مساهماته الظاهرة، أعمالاً اقتصادية فى الخفاء، من ذلك، معونة لشركة الكونسرة، وهى شركة سورية أنشئت لتجفيف الفاكهة وبيعها معلبة ومسكرة بمبلغ عدة آلاف جنيه قرضًا، وكانت الشركة عملاً وطنيًّا، على رأسه شكرى القوتلى وإخوانه زعماء حزب الكتلة، وكان آنذاك حزب الوطنيين.

ولو أتيح لك أن تسمع إلى طلعت حرب وهو يذيع خطابه فى ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٣٧، معددًا الأعمال التى قام بها بنك مصر، لتيسير الحج، لشعرت بأنه سعيد بهذه الأعمال وسعيد وهو يتغنى بذكرها الواحدة تلو الأخرى، قربى إلى الله، من جهة وخطوة إلى العمل الاقتصادى والاجتماعى والروحى فى الميدان الملاصق والمجاور لميدانه الأصيل: مصر.

وكعادته يمزج الأدب، بالاقتصاد، والماديات بالروحيات فيقول فى خطابه ذاك «إن الله لا يرضى لعباده، وهم يقصدون بيته الكريم المشقة، بل أنه عز شأنه، شرط الاستطاعة لأداء فريضته المكتوبة والاستطاعة لا تتوفر إلا مع سهولة الطريق، ويسر الإقامة، وضمان الراحة، والأمان فى

الغدو والرواح، أيحسب أحدنا أن يزوره زائر فى بيته فلا يقبل إلا إذا أنهكته مشقات التعب، وأضرت به السبل»..

«والآن سبيل الاستطاعة لأداء فريضة الحج سهل ميسور، حتى ليمكن أن يقال إن الحاج المصرى يستطيع أن يؤدى فريضة الحج على طريقة (من الباب للباب) بفضل الترتيبات التى اتخذت وتتخذ دائمًا لتوفير كل أسباب راحته وهناءته وطمأنينته» . .

وطريقة الباب للباب فى الحج، هى أن يدفع الحاج المصرى فى بلدته منوف أو ديروط مثلاً - طبقا لاتفاق أعده طلعت حرب ليبرم بين الحكومتين المصرية والسعودية - ما يساوى كافة ما يطلب منه فى الحج من رسوم وضرائب وأجور مطوفين وأجور سيارات وجمال بسعر الذهب ويتسلمها بنك مصر، ويؤديها بالنيابة عن الحجاج للحكومة السعودية ويرد الفرق لأصحابه إن وجد فرق، ويطالب بالزائد إن لزمت هذه المطالبة.

ثم بعد هذه الخطوة جاء فندق مصر فى السويس، ليستقبل الحجاج فى ميناء السويس إحدى بواخر بنك مصر، تقله إلى شاطئ جدة.

وفى بواخر بنك مصر، مؤذنون يؤذنون، وعلماء يفتون فى مناسك الحج، وأماكن معدة للوضوء، مزودة بكل ما يلزم لهذه الفريضة من مياه جارية، ومناشف، ثم أماكن للصلاة، ربما كان لا يوجد شىء شبيه به فى بواخر الشركات الأجنبية، فإذا وصلت الباخرة إلى شاطئ جدة، وجدت (الصنادل) و(اللنشات) بدل القوارب الشرعية، والصنادل القديمة المستهلكة، وكان الحجاج ينزلون فى موضع، ومتاعهم وحقائبهم، تنزل من الباخرة فى موضع آخر، فإذا نزل الحاج من الباخرة وجد عناء أى عناء فى استخراج حقائبه من بين أكداس أتلال الحقائب والزكائب، فأقنع طلعت حرب الحكومة السعودية، بتغيير هذا النظام المرهق. ثم لاحظ قلة

السيارات، فطلب من ولاة الأمر هناك زيادتها، وبذلك قام بواجب السفارة بين الحجاج والحكومة المشرفة على بقاع الحج المقدسة، ثم لفت نظرهم إلى أن السيارات بغير ورش للصيانة، لا تستطيع أن تؤدى واجبها، وفى مكة التى وصفها طلعت حرب بقوله «حيث تحملهم الأرض التى أخرجت خير أمه، وتظلهم السماء التى شهدت الوحى على خاتم النبيين حيث المسجد الحرام، وزمزم والحطيم والمقام، حيث أول بيت وضع للناس مباركًا وهدى للعالمين، حيث قبلة المسلمين، ومبعث النور والحق واليقين، حيث تخفق القلوب سلامًا، وتهوى الأفئدة حبا واعظاما، وتنشرح الصدور رضا وانسجامًا» فى مكة هذه، أقام طلعت حرب فندقين لبنك مصر، ثم رصف طريق السعى بين الصفا والمروة وفى عرفات يقول إنه اتفق مع الحكومة على تقسيم الجبل فى عرفات ومنى إلى مناطق تقسيمًا هندسيًا، يخصص فيه لحجاج كل منطقة، قسم، وتنشأ حول هذه المناطق بعد منحها أرقامًا مسلسلة سياجات كالمتبع فى مصيف رأس البر.

ولم يترك طلعت حرب الحجيج فى مكة، بعد أن أدوا فريضتهم، بل تابعهم حتى المدينة المنورة، فقد أنشأ لزائرى قبر الرسول ﷺ خطًا جويًا بين جدة والمدينة، ونجح الخط نجاحًا باهرًا، وكان المأمول أن تزداد الطائرات على هذا الخط.

جملة القول أن مواهب طلعت حرب، كمؤسس دولة، قد تنبهت، واستيقظت وأنه رأى مجالا لممارسة هذه الموهبة وإشباع نفسه، بتلبية أوامرها، فلم يتأخر..